الفصل السابع

الجنون.. و السياسة

الثورات العربية..وثقافة " البلطجة"

لعل من مهام الطب النفسي وعلم النفس - بالإضافة إلى علاج الحالات - النفسية دراسة ومتابعة ومواجهة الظواهر العامة التي تهم الناس ، ومن الملحوظ في الآونة الأخيرة لكل من يتابع الأخبار.. وما يحدث على امتداد العالم العربي مع تفجر الثورات الشعبية بصورة متتابعة بدأت في تونس ومن بعدها مصر ثم ليبيا واليمن وسوريا وبقية الدول العربية الاخرى..وكان القاسم المشترك في كل المناسبات التشابه في اساليب الانظمة الدكتاتورية عند مواجهة الاحتجاجات وثورة الشعب .. بداية من القمع باستخدام الوسائل المعروفة والاسلحة المختلفة.. وحتى الاستعانة بفئات معينة يطلق عليها في مصر " البلطجية" وفي دول اخرى "البلاطجة"، واحيانا " الشبيحة"..وهو وصف لبعض الخارجين على القانون الذين يقومون باعمال العنف والترويع لحساب جهات تدفع بهم كأداةقمع خاصة في الاحداث ..

ومن الانسب وصف سلوك " البلطجة " كبديل عن وصم اشخاص بهذه الصفة.. والجرائم وحوادث العنف التي تحولت إلى ظاهرة يعاني منها المجتمع في كثير من بلاد العالم العربي وتزايدت معدلاتها اثناء احداث الثورات... وقد تزايد

الاهتمام بجوانب هذا الموضوع علي نطاق واسع خصوصاً ما يتعلق بالناحية الأمنية لمواجهة هذه الظاهرة التي أصبحت تمثل تهديداً خطيراً لشعور الأمن الذي يعتبر في مقدمة الاحتياجات الأساسية للأفراد والمجتمع عموماً حتى تستمر حياة الناس في مسيرتها المعتادة . غير أن المواجهة لا يمكن أن تكون مكتملة أو فعالة إذا لم تتضمن الاهتمام بالجوانب الاجتماعية والنفسية للموضوع بجانب الناحية الأمنية .. وهنا اقدم رؤية نفسية للظاهرة وتحليلاً لدوافعها وشخصية الذين يقدمون علي القيام بها في سياق اكثر شمولا .

ومن وجهة النظر النفسية فإن هذه الظاهرة التي يعرفها الجميع بالعنف أو " الإجرام " أو البلطجة وهي الخروج علي القواعد والقوانين والميل إلى العدوان علي الأنفس والممتلكات بما في ذلك من تعد سافر علي حقوق الآخرين ليست جديدة بل لها جذور اجتماعية ونفسية . وتحدث بنسب متفاوتة في مختلف مجتمعات العالم . وهي بالنسبة للطب النفسي أحد أنواع الانحرافات السلوكية نتيجة للاضطراب في تكوين الشخصية . وبدلاً من التكوين السوي للصفات الانفعالية والسلوكية التي تشكل الشخصية التي يتعامل بها الفرد مع الآخرين والتي تتكون مبكراً وتتصف بالثبات والاستقرار ولا تتغير فإن الاضطراب يصيب

الشخصية فيحدث انحراف وخروج علي الأسلوب الذي يتعامل به الناس في المجتمع مما يتسبب في الاصطدام بين أولئك الذين يعانون من اضطراب الشخصية الذي يطلق عليه الأطباء النفسيون الشخصية " المضادة للمجتمع " *Antisocial personality* .. ولعل في هذا المصطلح وصفاً لما يحدث من خروج علي قوانين المجتمع وسوء التوافق مع الآخرين والاصطدام بالقوانين وهو ما يوصف أيضاً بالسيكوباتية *Psychopath* والتي تعرف لدى العامة " بالبلطجة " أو الإجرام الذي يتصف به الأشخاص الذين يعرف عنهم الميل إلى ارتكاب هذه الحوادث وتكرار ذلك دون رادع من ضميرهم أو خوف من العقاب الذي ينتظرهم .

وتحدث الانحرافات السلوكية الناجمة عن حالات اضطراب الشخصية - وهي حالات تختلف عن الأمراض النفسية التقليدية مثل القلق والاكتئاب والفصام والوساوس - في نسبة تصل إلى ٣/ من الذكور ،١٪ من الإناث حسب الإحصائيات العالمية في بعض المجتمعات ، وتبدأ بوادر الانحراف السلوكي في مرحلة المراهقة عادة أو قبل سن الخامسة عشرة ، وتحدث بصفة رئيسية في المناطق المزدحمة والعشوائية ،وتزيد احتمالاتها في الأسرة كبيرة العدد ،وفي المستويات الاجتماعية والتعليمية المنخفضة ، وفي دراسات علي أقارب المنحرفين من معتادي الإجرام والذين يتورطون في جرائم العنف (أو البلطجية) ثبت أن نفس الاضطراب السلوكي يوجد في أقاربهم بنسبة ٥ أضعاف المعدل المعتاد ، كما أن الفحص النفسي لنزلاء السجون اثبت ٧٥/ ممن يرتكبون الجرائم المتكررة هم من حالات اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع أو ما يطلق عليه الشخصية "السيكوباتية" .. ويستدل من ذلك علي أن جذور ودوافع العنف تبدأ مبكراً مع تزايد

هذه الممارسات والسلوكيات في بيئات معينة يتواجد فيها الشخص في فترات حياته المبكرة حيث يجد فيها النماذج السلبية التي يقلدها ويضاف إلى ذلك الاستعداد الفطري للانحراف لدى بعض الأشخاص الذين يتحولون مع الوقت إلى الإجرام والجنوح لتكون سمة دائمة واختيار متكرر في حياتهم .

وفي الدراسات النفسية التي تقوم علي الفحص لشخصية هؤلاء المنحرفين الذين يتكرر ارتكابهم لحوادث العنف فإن المظهر العام قد يبدو هادئاً مع تحكم ظاهري في الانفعال غير أن الفحص النفسي الدقيق يظهر وجود التوتر والقلق والكراهية وسرعة الغضب والاستثارة لدى هؤلاء الأفراد ، وهم لا يعتبرون من المرضي النفسيين التقليديين ، ولا يعتبرون مثل الأسوياء أيضاً، بل هي حالات بيئية يمكن أن يؤكد تاريخها المرضي الميل إلى الانحراف ، والكذب ، وارتكاب المخالفات والجرائم كالسرقة ، والمشاجرات ، والإدمان ،والأعمال المنافية للعرف والقانون وتكون الجذور والبداية عادة منذ الطفولة . وهؤلاء لا يبدون أي نوع من الندم أو تأنيب الضمير ، ولا ينزعجون لما يقومون به بل يظهرون دائماً وكأن لديهم تبرير لما يفعلونه من سلوكيات غير أخلاقية في نظر الآخرين ،وليس المنحرفون نوعاً واحداً ، فمنهم من يستغل صفاته الشخصية في تحقيق بعض الإنجازات دون اعتبار للوسائل ، ومنهم من يتجه إلى إيذاء الآخرين أو تدمير نفسه أيضاً ، ومنهم من يتزعم مجموعة من المنحرفين أو من يفضل أن يظل تابعاً ينفذ ما يخطط له الآخرون .. ولاشك أن جرائم العنف كالقتل والمشاجرات والاغتصاب ترتبط بالانحرافات السلوكية الأخرى مثل الإدمان والسرقة والأعمال المنافية للآداب

العامة ، وتزيد احتمالات الإصابة بالاضطرابات النفسية في الأشخاص الذين يرتكبون هذه السلوكيات نتيجة لاضطراب الشخصية.

وليس الحل لهذه الظاهرة الخطيرة أمراً ميسوراً من وجهة النظر النفسية بل يتطلب المشاركة بين جهات متعددة لأن الظاهرة معقدة ولها جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والأمنية والنفسية .. وهنا نضع بعض النقاط لتكون دليلاً للتفكير في كيفية التعامل مع المسألة دون إهمال للجوانب النفسية الهامة لها. نوجزها فيما يلي:

المنحرفون الذين يعرفون بالبلطجية يختلفون تماماً عن المرضى النفسيين رغم انهم حالات من اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع ، كما انهم يختلفون عن مرتكبي الجرائم بدافع محدد في ظروف معينة ، ولا يعتبرون من المتخلفين عقلياً بل هم حالات غير سوية تتطلب أسلوباً آخر للمواجهة .

للظاهرة جوانب أخرى حيث يشجع على تفاقمها عدم توقع العقاب الرادع ، والعدالة البطيئة ، وعدم وجود ارتباط مباشر بين ارتكاب المخالفة القانونية وتطبيق العقاب المناسب ، والتأخر في مواجهة الحوادث الفردية حتى تتزايد لتصبح ظاهرة .

الوقاية هنا أهم من العلاج وتبدأ بالاهتمام بالتنشئة ، لأن الانحراف الذي يصيب الشخصية يبدأ مبكراً ، وإذا حدث فإن علاجه لا يكون ممكناً.

في بعض البلدان يتم وضع هؤلاء المنحرفين بعد تشخيص حالتهم - وقبل أن تتعدد الجرائم التي يقومون بارتكابها - في أماكن تشبه المعتقلات من حيث النظام الصارم، وبها علاج مثل المستشفيات ويتم تأهيلهم عن طريق تكليفهم ببعض الأعمال الجماعية والأنشطة التي تفرغ طاقة العنف لديهم.

وبعد فقد كانت هذه رؤية نفسية لجرائم وحوادث العنف إلى أصبحت من الظواهر المنتشرة في مجتمعات العالم العربي وتزايدت مع احداث الثورات الحالية.. وقد كان الدافع إلى محاولة تحليل أسبابها ودوافع ارتكابها وشخصية مرتكبيها هو البحث عن حل يعيد شعور الأمن ليحل محل القلق والخوف من هذه الظاهرة .. والكلمة الأخيرة هي أن كل الجهات التربوية والأمنية والدينية ومؤسسات الرعاية النفسية والاجتماعية والإعلام والجهات الأخري يجب أن تنسق جهودها وتتعاون معاً لمواجهة مثل هذه الظواهر التي تهم كل قطاعات المجتمع وترتبط بالحياة النفسية والاجتماعية للناس في كل مناسبة وكل موقع .

وثمة كلمة اخيرة اتوجه بها من موقعي - كطبيب نفسي - الى القائمين على الامور في البلاد التي تعيش الثورات، او التي تنتظر،هي نداء بعدم اللجوء الى الاساليب الرخيصة كالبلطجة اداة للتعامل مع الخصوم لخطورة ذلك على الامن والسلام النفسي و آثاره الوخيمة الحالية واللاحقة على المجتمع اذا تم السماح بانتشار ثقافة " البلطجة".

جنون الزعماء :-

ما وجهة النظر النفسية في مسألة ضرورة الفحص النفسي للقادة .. و"الزعماء"؟؟!!..

يعرف الاطباء النفسيون أن مرضى " جنون العظمة " اى "البارانويا" لديهم اعتقاد راسخ مؤداه أنهم يتمتعون بتفوق وتميز يجعلهم فوق مستوى بقية الناس فمنهم من يظن أنه زعيم سياسي عظيم ، ومنهم من يعتقد أنه شخصية اجتماعية أو فنية رفيعة المستوى، ومنهم من يدعي بأنه يحمل رسالة مقدسة لخلاص البشرية!.. ورغم أن هذه الأفكار والمعتقدات تبدو طريفة للوهلة الأولي حيث تسمعها من المريض إلا أنك سرعان ما تكتشف أنها ليست مجرد مزاح أو فكرة عارضة لكنها نظام كامل من التفكير يتبناه المريض ويرتبه علي أساس تسلسل قد يبدو في بعض الأحيان منطقي ، وقد يتخلل عرض المريض لفكره بعض النظريات والرؤى والتحليلات الفلسفية لتبرير أفكاره، لكنها في النهاية تصل إلي استنتاجات بنيت علي فكرة مرضية خاطئة .. وقد يصاب بعض الرؤساء و القادة و الزعماء بهذا المرض لكنهم بالطبع لا يطلبون العلاج لأنهم لا يظنون لحظة واحدة أنهم يعانون من حالة مرضية بل تسيطر عليهم أفكار العظمة والتفوق ، ويندمجون في الترويج لنظرياتهم وفكرهم الوهمي و يجدون من يستمع إليهم!

ولقد وردت على خاطري فكرة رأيت أن اطرحها للمناقشة من خلال عرضها على زملاء المهنة من المتخصصين في العلوم النفسية .. وقد كنت أراجع بعض الموضوعات التي قمت بنشرها في الصحف وعلى مواقع الانترنت في لموضوعات النفسية الخاصة والعامة. وقد لفت نظري مقال اقترحت فيه ضرورة الفحص النفسي لسائقي السيارات كوسيلة للحد من مشكلة حوادث الطرق المتفاقمة في مصر والتي تحصد أرواح أكثر من ١٠ آلاف شخص سنويا بالاضافة إلى حوالي ٣٠ إلف مصاب . وكان العامل البشرى المتعلق بقائدي السيارات من سلوكيات وسرعة جنونية هو السبب الرئيسي في هذه الحوادث وما تسببه من ضحايا وخسائر.

و الفكرة التي طرحتها للمناقشة هي اقتراح بضرورة إجراء الفحوص النفسية وتقييم الحالة العقلية لرؤساء وقادة و " زعماء " الدول في المنطقة التي نعيش فيها على وجه الخصوص.. وأهمية أن يتم ذلك بشكل دوري للتأكد من سلامة القرارات التي يتخذها هؤلاء والتي تتعلق بمصائر البشر من شعوبهم .. ولعل الدافع لي إلى إثارة هذه القضية التي أعلم أن تطبيقها ليس بالأمر اليسير هو ما لاحظناه على مدى الأسابيع الماضية بالنسبة لأداء هؤلاء الحكام .. فالاستخدام المفرط للقوة والتصرفات المرضية التي تتسم بالرعونة وسوء تقدير الواقع التي نجم عنها حمامات الدم التي أثارت مشاعرنا ،و ما حدث من قرارات غير منطقية للحكام خصوصا في أخر عهدهم في السلطة التي بقى فيها كل منهم لفترات طويلة من الزمن.. وهذا ما دفعنى إلى عرض هذا الاقتراح بضرورة إجراء الفحوص والتقييم النفسي لهؤلاء

الحكام .. ولكن كيفية تحقيق ذلك فهو أمر متروك لزملاء المهنة في الطب النفسي .. وليس ذلك سوى مجرد فكرة أطرحها للمناقشة .

آخر الكلام: المثل المعروف :" شر البلية ما يضحك".. تخيلت جمعا من المتظاهرين يهتفون:" الشعب ... يريد... علاج الرئيس."!!!!

جنون .. "متلازمة ستوكهولم":

Stockholm syndrome (disambiguation)

في رؤية نفسية لاحدى الظواهر المصاحبة للثورات العربية.. كان من الظواهر التي تابعناها ولفتت الانتباه بشدة اثناء الثورات العربية التي اندلعت تباعا وجود قطاعات كبيرة نسبيا من مواطني هذه الدول يتمسكون بالنظم الدكتاتورية ويدافعون عن بقائها بل قد يواصلون تأييدها حتى بعد سقوطها ..والتعليل المباشر لذلك هو وجود مايطلق عليه " فلول" لهذه الانظمة المستبدة من الفاسدين الذين ارتبطت مصالحهم بها ويخشون من التغيير.. لكن الامر ليس بهذه البساطة فهناك بالفعل جموع اكبر من عامة المواطنين ومنهم للعجب كثير من الذين تعرضوا للمعاناة والمسجونين في ظل هذه الانظمة الدكتاتورية ومع ذلك يبدون تعاطفا حقيقيا معها حتى عقب انهيارها.. فما تفسير ذلك من وجهة النظر النفسية!؟

ويمكن ملاحظة هذا التأثير في الأنظمة القمعية، عندما لا تملك السلطة شرعيتها من اغلبية الشعب، فتصبح وسيلة الحكم القمعية ضاغطة على افراد المجتمع، ولمدة طويلة، يطور خلالها الافراد علاقة خوف من النظام، فيصبح المجتمع ضحية النظام، ويدرك النظام هذه الحالة مع الوقت، حتى يتقن لعبة ابتزاز المجتمع ..وعلينا - نحن الاطباء النفسيين - تقديم التفسير النفسي لهذه الظاهرة.

وهنا نقدم عرضا علميا لما يسمى:

متلازمة ستوكهولم - وتسمى أيضا متلازمة هلسنكي*Helsinki Syndrome* .. وهو مصطلح وصفه عالم النفس والجريمة " نلز بيرت" *criminologist and psychiatrist Nils Bejerot* ..و يطلق على الحالة النفسية التي تصيب الفرد عندما يتعاطف أو يتعاون مع عدوه أو من أساء إليه بشكل من الأشكال، أو يظهر بعض علامات الولاء له مثل أن يتعاطف المخطوف مع المُختطِف .

وقد أطلق على هذه الحالة اسم "متلازمة ستوكهولم" نسبة إلى حادثة حدثت في ستوكهولم في السويد حيث سطا مجموعة من اللصوص على بنك كريديتبانكين *Kreditbanken* هناك في عام ١٩٧٣، و اتخذوا بعضاً من موظفي البنك رهائن لمدة ستة أيام، خلال تلك الفترة بدأ الرهائن يرتبطون عاطفياً مع الجناة، و قاموا بالدفاع عنهم بعد إطلاق سراحهم.

والتساؤل عن سبب هذه الحالة.. فعندما تكون الضحية تحت ضغط نفسي كبير، فأن نفسه تبدأ لا إرادياً بصنع آلية نفسية للدفاع عن النفس، و ذلك من خلال الاطمئنان للجاني، خاصة إذا أبدى الجاني حركة تنم عن الحنان أو الاهتمام حتى

لو كانت صغيرة جداً فإن الضحية يقوم بتضخيمها و تبدو له كالشيء الكبير جداً. وفي بعض الأحيان يفكر الضحية في خطورة إنقاذه، و أنه من الممكن أن يتأذى إذا حاول أحد مساعدته أو إنقاذه، لذا يتعلق بالجاني.

و تظهر هذه الحالات كذلك في حالات العنف أو الاستغلال الداخلي، و هي حالات العنف أو الاستغلال: (عاطفي، جسدي، جنسي) التي تحدث داخل العائلة الواحدة، خاصةً عندما يكون الضحايا أطفال، يلاحظ أن الأطفال يتعلقون بالجناة بحكم قرابتهم منهم و في الكثير من الأحيان لا يريدون أن يشيروا بأصابع الاتهام إليهم .. ويصاب بهذه الحالة حسب بعض الدراسات مايقرب من ٢٧٪ من الفئات التالية: -

المختطفون - .المعتقلون -.أفراد العصابات .أسرى الحرب -أفراد الطوائف والمذاهب الدينية -ضحايا زنا المحارم، والعاهرات -ضحايا الاغتصاب -.النساء اللاتي يتعرضن للضرب المبرح والاضطهاد الشديد .

و بعض المواطنين في الدول القمعية.

والعلاج في هذه الحالات و التعامل معها يتطلب جهدا كبيرا كالعلاج الجمعي وتقديم الدعم والمساندة وإخراج المصاب من عزلته... كما يجب إعادة صياغة معاني السلوك الأخلاقي ومفاهيم الشر والخير للمصاب بمتلازمة ستوكهولم.

وفي ختام هذا العرض لهذه الظاهرة المثيرة التي صاحبت الثورات العربية في مواجهة انظمة الاستبداد التي سقطت بالفعل في تونس ومصر، والتي لاتزال في مسيرتها في سوريا واليمن لبيبا وماسوف يأتي في بقاع اخرى فانني من موقعي كطبيب نفسي عربي في قلب الاحداث ادعو زملاء المهنة الى الاستمرار في رصد وتحليل مثل هذه الظواهر.. وعلينا - نحن الاطباء النفسيين في مصر والعالم العربي- ان نتبنى الاختيار بأن يكون لنا دور ايجابي في محالات متعددة منها الوقوف إلى جانب الشعوب في تطلعاتها للحرية والكرامة والديموقراطية و تقديم القراءات السيكولوجية لتفكيك البنية النفسية للحكام المستبدين.. و مواجهة الأنظمة الديكتاتورية.. و رفع مستوى اللياقة النفسية للإنسان العربي ..وقبل ذلك وبعده بث الامل والطمأنينة في الافراد والمجموعات من خلال المشاركة والتواجد في الاعلام ومع الجمهور خلال الاحداث والمناسبات المختلفة في هذه المرحلة التاريخية.

والرسالة التي توجهت بها الى كل من حولي على مدى تتابع هذه الاحداث في مصر وفي أرجاء العالم العربي كانت ببساطة وبالعامية المصرية:"لا تبتئسوا".. أى "ما تخافوش".. نعم هى رسالة ونداء عاجل الى كل اخواني و أبنائي في كل موقع في المدن والقرى والبادية من المحيط الى الخليج.. و رغم جو الضباب والالتباس .. اجد ان الثورة المصرية العظيمة والربيع العربي حالة ابداع.. ولحظات نادرة عايشناها حافلة بالمشاعر الايجابية و الثقة بالله والنفس والوطن.. والمعنويات

العالية في السماء حينا ، والاحباط أحيانا..وعلينا _ من موقعنا نحن الاطباء النفسيين- ان نكون مع الناس وأهلنا من حولنا لمساعدتهم..وتساندهم في كسر حواجز الخوف للحصول على حقوقهم وتطلعهم الى الحرية التي هى أثمن كثيرا من الحياة ..